المشردون ...!

للأستاذ كليم أبو سيف

كان من حظ كاتب هذه السطور أن يقضي في أوربا رديحا من الزمن في الدراسة والتحصيل، وقد أتيح لي في أثناء إقامتي في تلك الربوع نحوا من أربع سنوات أن أقف على دقائق الحياة الأوربية في كثير من الشئون .

وأول ظاهرة تسترعي النظر هناك وتجذب الالتفات جذبا هي نفس الظاهرة التي تسترعي النظر منا وتجذب الالتفات جذبا إنما على صورة معكوسة في مصر تبعث على الدهشة بل على الاشمئزاز .

واقصد بهذا أولاد الشوارع المبعثرين في كل ركن من أركان العاصمتين المصريتين الكبيرتين — القاهرة والاسكندرية — والشحاذين المحترفين الجائلين الذين يكونون مع الفريق الأول جيشا عرمرما يهدد السمعة المصرية ويؤذيها أذى الطاعون ...! ، هذا منظر لا يقع عليه البصر في أية بقعة من بقاع أوربا — بل في أية بقعة من بقاع العالم المتمدين كله . فالمؤسسات القائمة على العناية بهذه الطبقة البائسة لا يحصيها الحساب هناك ، ولكنه في مصر أصبح عاديا إلى الحد الذي لم يعد يثير فينا نحن المصريين شيئا من الاشمئزاز أو الامتعاض ، وكلا الأمرين ، انتشار هذا الفريق من الآدميين في الطرقات والميادين انتشار الذباب ، وعدم احساسنا بقبح هذا المنظر ، يبعثان على الأسف الشديد ... !

إذ في كل مكان من الكرة الأرضية فقراء ومتشردون ، فاذا كنا لا نراهم في بلاد العالم المتمدين على الصورة التي نراهم بها في مصر ، فذلك لأن الحكومات هناك قد عنيت بهذا الأمر عناية فائقة واتخذت له من الاحتياطات وسنت من القوانين واتخذت من التدابير ما قطع دابر هذا الداء الوبيل .

ولم تكن الحكومات وحدها هي المعنية بعلاج هذا الداء بل إن الأهلين يشاركونها في حمل هذا العبء مشاركة كبرى حتى ليزيد في بعض البلدان ما يقوم به الأهلون عما تقوم به الحكومات في هذا الباب .

ولعل من حظ مصر السيء أنها كانت ولم تزل أثناء هذه الحرب الضروس مسرحا للملايين الجنود من شتى الدول والأجناس بين وافد عليها قد رحل وقادم اليها ما يزال يقيم في ربوع البلاد، أقول إن حظ مصر كان سيئا لأن كل جندي من هؤلاء الجنود رأى أولاد الشوارع والشحاذين وذوي العاهات على النحو البشع الذي تعودنا رؤيته نحن ، وحمل معه صورة كنا نود أن يحمل نقيضها تماما عن وادي النيل .

وليس من شك فى أن كل جندى من هؤلاء إنما هو يوقى دعايه فى بلده، فترى كم وقى الدعاية ضد مصر قد نفخ فى أرجاء المعمورة أثناء هذه السنوات الست .

وما دمنا قد طرقنا موضوع الدعايه لمصر وصيانتها أمام دول الغرب وأمام الأجانب المقيمين معنا ، فهناك نقط يجب أن تطرق وهى إن لم تزد عنه فى الأهمية فهى لاتنقص عنها بحال .

فمنها أن هولاء الصبية المتشردين بتركهم دون عناية ودون رقيب يتربون على الإجرام وسوء الخلق ويكونون فى الغد جيلا متمردا شريرا لا يدرك البصر مدى أذاه . فى حين أنهم إذا وجدوا عنايه وسهرا على تربيتهم واشرافا فعالا من الحكومة لتكون منهم جيل من الصناع والعمال النافعين فى كثير من نواحى الحياة

ومنها أن هذه الطبقة من الناس مصابة بأمراض كثيرة فتاكة فهى تنشر هذه الامراض وتنقلها الى الآخرين، فاذا نحن توفرنا على العناية بها وقيناها هى أولا شر هذه الأمراض ووقينا الآخرين .

كنت أنتظر ترام المترو ذات ليلة عائدا إلى مسكنى بمصر الجديدة . فدنا منى ولدان أحدهما لاتزيد سنه على السابعة والآخر على العاشرة. فطلب منى أصغرهما أن أعطيه "شيئا لله"، فعن لى أن أسأل هذا التعس عن بعض ظروفه فقلت له : تعال يا شاطر : ما اسمك ؟ قال فى براءة الطفولة وقد بدأ يساوره شيء من الخوف منى : اسمى محمد يا بك ! فسألته : تعالى يا ابنى ولا تخف : أين أبوك ؟ فأجاب لقد طلق أمى ... ! فقلت وأين أمك : قال فى البيت ! فسألته وماذا تصنع أمك فى البيت ؟ وهنا دنا منى الصبى الآخر الذى كان يسمع هذا الحوار وتطوع باعطائى البيانات الشافية الوافية عن زميله . فقال فى جرأة وطلاقة عجيبتين :

يا " بك " لا تعطيه شيئا ! إن أمه صغيرة السن وقد طلب اليها أحد الموظفين فى شبرا أن تشتغل عنده خادمة وعرض عليها مأوى لها ولابنها وغذاءا وكساءا لها معا علاوة على أجر شهرى قدره جنيهان نظير قيامها بخدمة زوجته وأولاده . فرفضت مفضلة " تسريح " هذا الولد ليستجدى هنا وهناك ...

قلت وقد أعجبت بالصبى اعجابا كبيرا : إذن فأمه تقيم فى البيت بلا عمل ! ؟ قال فى حدة وانفعال : لا يا بك ! إنها هى الأخرى تستجدى فى شبرا وترسل ابنها ليستجدى فى باب الحديد ... ! أوليس أشرف لها يا بك أن تخدم وتكسب من عرق جبينها من أن تعيش على التسول وترسل بهذا الابن "الغلبان" يتشرد فى الشوارع !

عندئذ خاف الصغير البائس وظن أنى سألحق به أذى فبادر بتصحيح موقفه وقال أنا لا ذنب لى...إنها أمى التى تطلب منى أن أستجدى ! فطمأنته وقلت له لا تخف يامسكين ! إذهب وقل لأمك أن تشتغل ما دامت قادرة على هذا ... وأبيت أن أعطيه شيئا !

وهى مأساة وسط محيط متلاطم الأمواج من المآسى التى تشبهها فى المجتمع المصرى . وهى أزمة أخلاقيه وأزمة اجتماعية فى غاية الخطورة . لذلك يخطىء من يظنها من الهوان بحيث يصح التغاضى عنها . إذ فى مقدور كثير من آباء وأمهات هؤلاء المتشردين أن يقوموا بأعمال كثيرة تقوم بسد أولادهم يربحون منها ربحا مناسبا حلالا، ولكنهم يؤثرون على هذا خبز الكسل والعيش الذليل . وما ذلك إلا لأنهم لم يجدوا رادعا يردعهم عن احتراف هذه الحرفة المهينة التى يربحون منها ما يربحون دون أى عناء ... ! !

لذلك كان من الضرورى للغاية على الحكومة أن تسن قانونا يمنع مثل هذه الأعمال ويقطع الطريق على محترفيها من هذه الشرذمة المجرمة التى لا أمل فى أن تقلع عن إتيانها إلا إذا خافت عصا القانون وخشيت الزجر والتأديب ... !

وهناك ناحية إنسانية أخرى جديرة كذلك بالرعاية والالتفات وهى الخاصة بذوى العاهات من هذا الجيش المتخاذل الكبير .

فهذه الاشلاء المبعثرة التى فتك بها المرض وأولئك العمى وذووا السيقان والأذرع المبتورة الذين يجومون خلال الشوارع وعلى المقاهى فى ثياب رثة تكاد تثب النفوس لرؤيتهم من الغثيان ، كيف تسمح الحكومة لهم " بحرية المرور " وتتركهم هكذا بلا سند ولا معين ؟

إننا فى الوقت الذى نطالب الحكومة فيه بأخذ الأصحاء من المتسولين بالشدة والعقوبة الرادعة نطالبها بعمل شىء لهؤلاء العجزة والمصابين . إذ لا يجوز ابقاؤهم على هذه الحال الرثة دون علاج حاسم سريع .

قد يقول قائل : وأين لحكومة المال الكافى لكل هذه المشروعات وموارد الدولة محدودة وأبواب الميزانية مصابة بداء التخمة العياء ؟ ؟ وأنا أجيب فأقول إن فى الميزانية أبوابا كثيرة يمكن إجراء عمليات بتر فيها لتوفير جزء من المال اللازم لهذه المشروعات الحيوية ، والباقى يجب أن يحصل من الأغنياء والذين أثروا ثراء فاحشا أثناء سنى الحرب . وأقول " يجب " أن يحصل عن طريق الضرائب التى تفرض على هؤلاء فرضا ما دامت نفوسهم أصبحت من الكزازة والجمود بحيث لم تعد تعى لغة الرحمة ولا تصغى لنداء الواجب ... شىء يجب أن يعمل كعلاج لهذه الحالة المرذولة التى يأباها الضمير الحر السليم ...

ولا أحسبني مخطئا اذا قلت إن وزارة الشئون الاجتماعية هي المنوطة بهذا الواجب ، وانني لا أجد وقتا أنسب لوزارة الشئون لاتمام هذا العمل الجيد من الوقت الحاضر الذى قيضت لها الظروف فيه وزيرا من أعمق المصريين وطنية وأشدهم حماسة وحرصا على كرامة وطنه ، وهو صاحب المعالى الاستاذ عبد المجيد بك بدر وأنا من الذين تفاءلوا كثيرا باختيار معالى عبد المجيد بدر بك لوزارة الشئون ، لأنني أعرف وأعرف عنه من الرجولة والاقدام والاخلاص ما هو خليق بان يقفز بوزارته قفزات واسعات إلى الأمام ، فانا أهيب به أن يصنع شيئا فى هذا الأمر دون إبطاء .

اننا نعلم أن كثيرا جدا من الإصلاحات لا يتأتى إتمامها فى مصر الا إذا صيغت فى لغة الأمر أى لغة القانون ، ولذلك فاننا نطالب معالى الوزير الجليل بسن تشريع يفى بالفرض المطلوب فى هذا الباب ، وإننا لنرجو أن يكون تشريعا حاسما وعلاجا ناجعا تجنى منه الأمة المصرية والسمعة المصرية والكرامة المصرية أبرك الثمرات ؛

كليم أبو سيف

" ليس لواضع المعروف فى غير حقه وعند غير أهله ، من الحظ إلا محمدة اللئام ، وثناء الأشرار ، ما دام منعما عليهم ، ودو عن ذات الله بخيل ، فمن أتاه الله مالا فليتصل به القرابة ، وليحسن منه الضيافة ، وليفك به الأسير والعانى ، وليعط منه الفقير والغارم ، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب ، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ، ودرك فضائل الآخرة " .

على بن أبى طالب